في عالم غاب فيه العقل السياسي لم يبق للمتضامنين مع فلسطين سوى شعاراتهم وتراكماتها التاريخية

نشرت صحيفة "الغارديان" مقالا للمعلقة نسرين مالك قالت فيه إن الشاعر السوري نزار قباني الذي يعتبر أشهر شعراء العرب في العصر الحديث، كتب في عام 1988، ثلاثية "أطفال الحجارة"، وكانت القصيدة مهداة لأطفال الانتفاضة الفلسطينية الأولى، الذين أصبحوا، برشقهم الجنود الإسرائيليين بالحجارة، رموزا للعصر.

واندلعت الانتفاضة عام 1987 بسبب الإحباط الناتج عن الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، وتميزت بالعصيان المدني والاحتجاج السلمي، والأهم من ذلك، أن رموزها كانوا هم هؤلاء الأطفال.

وكتب قباني: "يا تلاميذ غزة لا تبالوا بإذاعاتنا.."، معتبرا نفسه جزءا من جيل أكبر سنا فشلت محاولاته للتوصل إلى تسوية مع إسرائيل في توفير الحرية للفلسطينيين. وقال: "ولا تسمعونا../ نحن أهل الحساب/ والجمع/ والطرح.. إن عصر العقل السياسي/ ولى من زمان/ فعلمونا الجنونا".

[illegible]

وتعلق الكاتبة أن قباني كان جزءا من التقليد العربي للفن والأدب الذي عبر عن يأس الفلسطينيين، وكيف أن ملاذهم الوحيد هو "جنون" الأطفال الذين يرشقون قوة مسلحة بالحجارة. ولم يبق لهم سوى رفض قبول هزيمتهم والانحياز ضد الأقوياء – من دون حلفاء، وفي خطر كبير، ومن دون خطة.

وطالما حدث ذلك، فستظل فلسطين موجودة، مكانا يتم الحفاظ عليه حيا من خلال التأكيد على أن شعبه لا يزال هنا، وما زال يطالب بحقه في هويته، ولا يزال حرا ببساطة نتيجة لعدم التخلي أبدا عن هذا

المطلب.

وقالت إن الانتفاضة الأولى التي تمت مراقبتها عن كثب في منطقة يحكمها مستبدون وعسكريون وملكيات مطلقة، رسخت رسالة عميقة في النفس العربية الشعبية وهي أنه "يمكن للسادة السياسيين السيطرة على كل شيء باستثناء حق الناس في رعاية رؤية لما يستحقونه".

وتعلق قائلة "بالنسبة لأبناء ذلك الجيل، وأنا واحدة منهم، كانت كلمة "الانتفاضة" تعني ذلك بالضبط: نفض التراكمات. بالنسبة لآذاننا، كان ذلك يعني المطالبة بالحقوق المدنية وليس العنف وإراقة الدماء. وكانت أيضا كلمة ليس لها هدف نهائي واضح، ولا غرض محددا سوى الرفض والمقاومة – دليل على التجذر".

وتقول إن أغنية "أنا دمي فلسطيني" وهي احتجاجية شعبية صدرت عام 2015 وتم تشغيلها أثناء الاحتجاجات في الغرب، مبنية على هذا الموضوع. ومن الجدير بالذكر أيضا أن مغنيها الفلسطيني محمد عساف فاز بالجزء الثاني من برنامج (أراب أيدول) عام 2013 بعد مسابقة قدم فيها أغاني فلسطينية تراثية استحوذت على قلوب وعقول المشاهدين العرب.

وتقول إنه إلى جانب العديد من القصائد والأعمال الفنية والأعمال الأدبية ومقتطفات من الاقتباسات والشعارات، تشكل هذه الأمثلة تراثا كاملا للهوية الفلسطينية لم يتم صياغته في الجامعات الغربية أو في وسائل الإعلام الغربية، ولكن في مخيمات اللاجئين، على الجدران المتبقية من المنازل المهدمة، في السجون وفي مجموعات سكانية معزولة، بين أولئك الذين طردوا من منازلهم ويتوقون إلى حق العودة.

ومعا يخلقون مكانا نظريا، متحررا من الواقع البائس، يغذي العزاء والشجاعة والتواصل بين الأشخاص المشتتين والمقتلعين الذين يطمحون إلى شيء نعتبره أنا وأنت أمرا مفروغا منه: الدولة.

وترى أن انتقال هذه الثقافة إلى الخطاب السائد في اللغة الإنكليزية منذ 7 تشرين الأول/ أكتوبر أدى إلى تحويل الكلمات الموجودة فيها إلى معان حرفية، تم إسقاطها عليها من قبل مراقبين ليس لديهم سوى القليل من المعرفة بتاريخها وفروقها الدقيقة.

فقد تم التعامل مع مصطلح "الانتفاضة" على أنه ليس أقل من إعلان لا لبس فيه لـ "الحرب المقدسة". وفسرت عبارة "من النهر إلى البحر،

فلسطين حرة"، التي ليس أصلها عربيا ولكنها تعبر عن شوق الفلسطينيين إلى وطنهم التاريخي، تم تفسيرها بحيث لا تعني أي شيء مما تقوله. وقالت وزيرة الداخلية البريطانية السابقة، سويلا برافرمان، إن هذا "مفهوم على نطاق واسع على أنه مطلب لتدمير إسرائيل".

وتساءلت الكاتبة: كيف ستكون فلسطين حرة على وجه التحديد، ولم يحصل الشعب الفلسطيني على فرصة تحديدها بشكل كامل؟

ففي أوسلو، لم يعرض عليهم حتى الخطوط العريضة لحدود ما يمكن أن يصبح كيانا فلسطينيا، ولا حق العودة إلى المنازل التي طردوا منها منذ عام 1948.

وفي عام 2020، لم تشمل خطة السلام التي وضعها دونالد ترامب حتى دولة كاملة.

وتقول إنه في ضوء أحداث 7 تشرين الأول/أكتوبر، من المفهوم بالنسبة للبعض أن التعبير عن الانتفاضة الفلسطينية والمطالبة بالأرض يأخذ طابعا خطيرا.

لكن قصة هذه المصطلحات والأناشيد أطول بكثير من تلك التي تم تكثيفها وإدانتها خلال الأشهر السبعة الماضية. إن التاريخ الفلسطيني من المقاومة، والذي يمتد لعقود من الطرد والمذابح والإذلال والعزل والمراقبة، لا تمثله حماس وحدها.

هناك أيضا شيء ما حول إسقاط النوايا الصارخة على التضامن مع الفلسطينيين والدعوات إلى تقرير المصير، والذي يسيء قراءة طبيعة الاحتجاج على أنها شيء يحتاج إلى قياس وعقلانية (بطرق لم يتم تحديدها تماما على الإطلاق) حتى تكون ذات مصداقية. لكن الاحتجاج أصبح ضروريا على وجه التحديد لأن السلطات لم تستجب. ويتم تعريفه من خلال عدم التماثل في السلطة والقدرة على الوصول إلى الأدوات السياسية. يتمتع السياسيون بسلطة تنفيذية، والمتظاهرون لديهم شيء واحد: أصواتهم.

وتعلق أن الحركات الاحتجاجية هي بطبيعتها أفعال معارضة، وغالبا ما تتمتع بهذه الخاصية المتسقة بشكل إعجازي – تتوسع بسرعة من المساحات السياسية إلى المساحات المجتمعية، وتتضمن الأغنية والرقص والشعر والأخوة الحميمية بين الغرباء.

ومن هنا فسحق هذه المساحات – والأسباب التي تمثلها – لا يتم من خلال القوة الغاشمة، ولكن من خلال تصوير المشاركين كأشرار. وعليه فهي تظهر صورة أشخاص مثل المدعومين من بوتين، أو المؤيدين لحماس، أو الذين يقودهم متسللون محترفون. وكلما أصبح من الصعب التشكيك في جدية وضرورة التضامن مع الفلسطينيين، أصبحت مثل هذه الادعاءات أكثر شذوذا.

لقد أصبح من الواضح الآن أن مئات الآلاف من المتظاهرين الذين شاركوا في مسيرات من أجل غزة، من لندن إلى واشنطن، ليسوا من دعاة الكراهية.

وأشارت إلى دراسة نشرت الأسبوع الماضي، حيث كشفت أن 97% من المظاهرات في الحرم الجامعي الأمريكي لأجل غزة كانت سلمية. ولكن ما يجعل الحرب الدعائية ضد التضامن مع الفلسطينيين أكثر إلحاحا هو حقيقة أن أعمال حماس الدموية في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر لم تعد ذريعة ذات مصداقية لما تفعله إسرائيل. ويتم إحباط جهود التشهير باستمرار من خلال مشاهد الموت والمجاعة التي لا هوادة فيها في غزة، وفي الواقع الكلمات العدوانية للسلطات الإسرائيلية نفسها: ممثلو الدولة النووية القوية المدعومة من الولايات المتحدة والذين لا يخضعون لنفس القيود التي تخضع لها شعارات المتظاهرين التي تتلاشى في الهواء.

في عالم كهذا، حيث يتم تدمير غزة، ما الذي يتبقى سوى الاستمرار في بناء هوية فلسطينية، بشكل أكثر حيوية وقوة من أي وقت مضى، يحددها حقها في الوجود بدلا من خطر المحو؟ فماذا بقي سوى الاستمرار في رفض هذا العصر الذي رحل فيه العقل السياسي منذ زمن طويل؟".

المصدر: صحيفة الغارديان البريطانية

ترجمة: إبراهيم درويش